المصورون الأوائل في حوض المتوسط

شارل – أنرى فافرود

لقد اتاح اختراع التصوير تغطية حوض البحر المتوسط دفعه واحدة, من أشبيلية حتى القسطنطينية و من مضيق جبل طارق حتى برزخ السويس.

منذ مارس عام 1839 اعتبر كل من الأديب الفرنسى بروسبار ميريمية و الذى كان يعمل مفتش آثار, هيئة الآثار التاريخية, التصوير الذي اعلن عن اكتشافه في ذلك الوقت كأداة يمكن تطويعها لخدمة الآثار.

كما أصر الكيميائي أراجو من خلال اتصالاته بأكاديميتي العلوم و الفنون الجميلة علي نقطة محددة و هي "نسخ آلاف النقوش الهيروغليفية التى تغطي آثار طيبة و ممفيس و الكرنك, فيما قبل ذلك كان يتطلب عمل كهذا عشرين عاماً و كتائب من الرسامين و لكن بفضل آلة التصوير علي شرائح النحاس يستطيع رجل واحد أن ينتهي من هذا العمل الضخم دون حدوث خطأ". و في السادس من نوفمبر وصل إلي مصر المصور أوراس فارنيه بصحبة فريريك جوبي فيسكيه و بدأ أول حملة تسجيل. و قبل نهاية العام تم تصوير القدس و الناصرة و عكا. و نستطيع رؤية هذه الصور في كتاب نزهات مصورة الذي بدأ نشره بباريس عالم البصريات لوروبور عام 1841.

و في وقت الصور المطبوعة كان يطلق اسم الجولة الكبرى علي الرحلة التي تبدأ من إيطاليا أو أسبانيا الي شما ل إفريقيا مروراً باليونان وتركيا العثمانية و الأراضي المقدسة و مصر. و أصبح التصوير, بفضل التقدم الفني, سريعاً و أفضل وسيلة لتسجيل الآثار بدول المتوسط بتنوعها و وحدتها العميقة. فيما قبل ذلك كانت النظرة سطحية إذا ما أردنا وصفها بالهزلية. فتوجد صوره إنجليزية منقوشة تعود إلي القرن الثامن عشر تظهر فيها هضبة الأهرام بالجيزة و بها عشرين هرماً كبيراً!

تنقل الصورة معاينة غير قابلة للرفض, فهي تنقل الطبيعة, ليس الأماكن فحسب و لكن أيضاً مستوي الضوء و المشاهد يري بدهشة و يكتشف إنه ممكن أن يري عن بعد في زمن مختلف عن الذي صورت خلاله, فتم تسجيل كل التراث و توثيقه و ذلك بالكاميرا المظلمة و التي كان يستخدمها في ذلك الوقت كانالتو و بيلوتو بالإضافة إلي دىلا بورتا و فارمير و جوته و تالبو. و في عام 1851 الفرنسي إدجان بيو بنشر كتاب مصور تحت عنوان إيطاليا العظيمة و كان له أثرا مبهراً. قام العديد من المصورون الأجانب بزيادة رحلاتهم من فينيسيا إلي صقلية دون أن ينسوا ساردينا حيث قام السويسري إدوارد دولسار باول عمليات التسجيل الفوتوغرافي عام 1854 و في نفس الوقت قام المصور الإنجليزي كالفرت جونز بصحبة مواطنه جورج ويلسن بريدج برحله مثمرة من فلورنسا حتى نابولي قبل أن يستكمل مسيرته نحو باليرمو و مالطا. و كانت أكاديمية فرنسا و التي يقع مقرها بفيلا ميديتشي كانت تستقبل كونستان و نورمان و بالأخص المصور العبقري بادوان كانيفا و تلميذة تومينللو وكل هؤلاء سوف نراهم فيما بعد علي مقهى جريكو المجاور للأكاديمية.

عندما نتحدث عن إيطاليا لا يجب أن ننسي أسبانيا حيث بدأ الرواد عملهم بنشاط منذ عام 1839 و حيث ارتبط المصور الإنجليزي الكبير تشارلز كلفورد ببلاط الملكة إيزابيلا عام 1852 و قام بالتقاط صور رائعة تظهر فيها مناظر طبيعية واسعة و لكن توضح تفاصيل نباتية مبتكراً بهذا ما يجب أن ندعوه حداثة استثنائية من حيث الرؤية و الامتياز الفني المتقدم علي عصره. و نعود إلي إيطاليا مرة أخري و لكن عشرة أعوام لاحقاً حيث قاما كل من جيورجيو سومار و روبار ريف التسجيل الفوتوغرافي للآثار و الحياة اليومية بشكل منتظم مكونان ثروة مذهلة من المعلومات عن كمباني و صقلية و في هذا الوقت بدأت صور بركان فيزوف و إتنا تزداد في أيدي السائحين لتحل محل النقوش.

بدون شك تمثل إيطاليا حجر الزاوية في الجولة الكبرى, و لكن سرعان ما تتوجه الرحلة نحو الشرق. قال داجار عام 1839 "ما يستوجب تصويره عشرين دقيقه في باريس سرعة الشمس بمصر تقلص زمن تصويره عشرة مرات". في عام 1849 وصل ماكسيم دي كان إلي مصر بصحبة جوستاف فلوبار و كان أول مصور يصطحب معه كاتب قرر أن ينقل ما شاهدة كتابتاً. قام جوستاف لو جرية بتعليم ماكسيم دي كان أصول الطباعة كما علمه أليكسي دو لا جرانج كيفيه إضافة اللمسات الأخيرة التي كان يدفنها بلنكار إفرار صاحب المطبعة القلبعة بمدينة ليل الفرنسية.

أما جون بولكلاى جرين فكان صاحب فضل عظيم ولكن قصير جداً حيث أنه توفى فى الرابعة والعشرين من عمره بعد ما قام بتطوير فى منهجية التصوير ورؤيته فيعد جرين أول مصور يصور تمثالى ممنون من الخلف فى وقت كانت فيه الواجهات تسيطر على كل الصور.

العديد من المصورون البريطانيون كانوا موجودون بدول الشرق منهم المصور المرموق جورج بريدج الذى ذكرنا دوره فى إيطاليا.

وجون شو سميث وفرانسيس بدفورد الذي اصطحب الأمير ويلز معه عام 1862، ولا يجب أن نغفل فرانسيس فريث الذى تعددت رحلاته الى مصر بمشاركة فرانك مازون جود وقام بتسجيل كامل لآثار مصر.

كما قام الفينيسى أنطونيو بايتو بعمل مماثل حتى عام 1900 وقد إستقر بايتو بالقاهرة ثم الأقصر بعدها بدأ العمل بالتعاون مع أخيه فيليس وجيمس روبيرتسون الذي تعرف عليه بمالطا عقب رحلة كان يقوم بها فى القرم والقسطنطينية وأصبح فيما بعد زوج شقيقته.

لم يكن الفرنسيين بعيدين فقد قاموا بتصوير الأشخاص بالإضافة الى الآثار فهنرى بشار وإيبوليت أرنو زاروا موقع قناة السويس مراراً ووجهت دعوة حفل الافتتاح

عام 1869 لكل من أوجوست روزالى وأدولف برون وفيليكس تنيار الذي قام بزيارة لمصر عام 1851. أما جوستاف لوجراي جاء من صقلية ليستقر بمصر حيث مات بها وإيميل بروجش مساعد مدير مخازن متحف بولاق والذي عمل تحت قيادة كل من أوجوست ماريات وجاستون ماسبيرو وكان أول من قام بتصوير المومياوات الفرعونية.

ويجب أن نذكر الإيطاليين أيضاً مثل كارلو نايا وفرانسيسكو كاريللى وأليساندرو بربنيولي واليوناني بريديس والأرمنى ليكيجيان والتركي باسكال سباح الذي أرتبط بالفرنسي بوليكارب جوابيه ويونانيون آخرون مثل الأخوين زانجاكى وأتراك آخرون مثل الأخوان هو رسب والأخوان فيشن والأخوان كفروك عبد الله الذين تمتعوا بنشاط ملحوظ فى مصر والمناطق الشرقية من الإمبراطورية العثمانية بفضل كونهم المصورون الرسميون للسلطان.